

من ذكرياتي ... وقفات في مسار المدرسة العليا للأساتذة بالقبة (2)

محمد الطيب سعداني

أستاذ متقاعد، بقسم الكيمياء، المدرسة العليا للأساتذة، القبة

mohammedtayeb.sadani@g.ens-kouba.dz

1. من إسهامات المدرسة

1.1. في تعريب العلوم

لا شك أن من أكبر إسهامات المدرسة تعريب العلوم بفضل أساتذتها وبما قاموا به من أعمال في مجالات الترجمة والتأطير، ومن أقدمهم، من المنتسبين إلى المدرسة في الفترة التي حدّناها، الأستاذ أبو بكر خالد سعد الله الذي ترجم عددا كبيرا من الكتب في مجال الرياضيات.

ولا يفوتنا أن نذكر أن السيد عبد الحفيظ مصطفى (1935-2006)، الذي كان من القلائل من جيله الذي درّس الرياضيات بالعربية بل وسجّل دروسا في هذه المادة بطلب من وزارة التعليم العالي، كان قد كلفنا في أواخر الستينيات بإنشاء فوج للبحث في المصطلحات العلمية. كان هذا الفوج مكوّنا من طلبة من كل التخصصات العلمية من بينهم المرحوم محمد الفاضل مفتاح في الفيزياء الذي تولى فيما بعد منصب نائب مدير لجامعة قسنطينة، ومبارك مرغيدو في الرياضيات. وكان الفوج يلتقي مساء يوم الأحد وينظر في ترجمة بعض المصطلحات من الفرنسية إلى العربية وينشرها بعد طباعتها.

2.1. الجامعة الصيفية

علاوة على العديد من الملتقيات العلمية الوطنية والدولية التي نظّمها الإدارة والجمعيات العلمية خلال الثمانينيات، عُهد إلى المدرسة تنظيم جامعة في صائفة 1985 دامت ثلاثة أسابيع لفائدة مئات من الأساتذة من كل القطر الجزائري. كان معظم هؤلاء الأساتذة قد وُظف تحت وطأة الحاجة العاجلة لتأطير تلاميذ التعليم الثانوي الذين زاد عددهم بصورة ملحوظة خلال السبعينيات، وذلك دون استكمال دراستهم (إحراز شهادة الليسانس) بل لمجرد تسجيلهم في السنة الأخيرة من الليسانس. وقد منعهم هذه الوضعية من الترسيم سنوات عديدة. أوكلت إلينا هذه المهمة، فكان علينا العمل على جمع الأساتذة المؤطرين للتكفل بتدريس كل الوحدات الموجودة في ملامح تكوين أساتذة التعليم الثانوي العام، العلمية منها والأدبية.

وكانت وزارة التعليم العالي قد وفّرت لنا كلية الحقوق للجوانب البيداغوجية والإقامة الجامعية بين عكنون للإيواء، لقربهما من مديرية التكوين بوزارة التربية المشرفة على كل الجوانب المادية. وقد تمكّنا من توفير العدد اللازم من الأساتذة المؤطرين أي نحو 120 أستاذا، والذين وفدوا من جميع جامعات القطر وكانوا مثالا في الجدية والكفاءة والانضباط، ممّا كفل لهذه التجربة الأولى كل النجاح، وهنّأنا بهذا النجاح كل من وزير التربية ووزير التعليم العالي في زيارة لهما. ولقد ساعدنا في هذه المهمة أستاذ الفيزياء (بالمدرسة) إبراهيم معزوز الذي أبان عن قدرات عالية في التسيير والتنظيم.

3.1. في تأطير جامعات الوطن

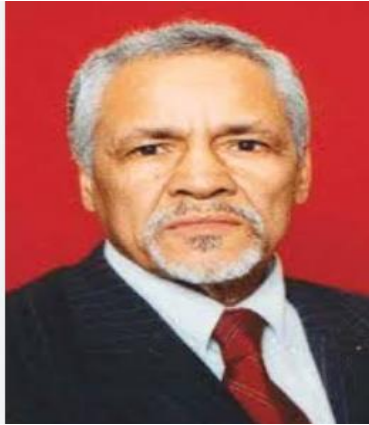
لعلّ من أوّل ما ينبغي ذكره في هذا المجال هو ما أسهم به خريجو المدرسة إن على صعيد التأطير الإداري أو البيداغوجي للعديد من جامعات القطر، بدءا من جامعتي الجزائر وباب الزوار في التخصصات الأدبية باللغتين كما في

التخصصات العلمية. وكذلك الشأن بالنسبة للعديد من الجامعات والمدارس العليا فيما بعد، مثل جامعة قسنطينة وجامعة تلمسان، والمدرسة العليا للتعليم التقني بوهران على سبيل المثال. فيما كان لبعضهم أيضا دور في تأطير جامعات خارج الوطن لا سيما في فرنسا.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر أن من بين أوائل قدامى الطلبة الأساتذة الذين أسهموا في تأطير جامعة باب الزوار الأستاذ المرحوم عبد القادر خلادي (1944-2021) الذي سميت قاعة باسمه في جامعة باب الزوار عرفانا بإسهاماته في مجالات البحث والتعليم والتسيير، والأستاذ محند أرزقي موساوي في الرياضيات، والأستاذ احسن بوعبد الله في الفيزياء والأستاذ إبراهيم مكلاطي والأستاذ بو بكر معوش وعلاوة رباح وزوجته في الكيمياء، والأستاذ علي شيخي وغازي عياد في البيولوجيا، والأستاذان ربوح حناشي وإبراهيم بو المطافس ومصطفى قندوز في الجغرافيا والتهيئة العمرانية. منهم من انتقل إلى رحمة الله ومنهم ممن يزال على قيد الحياة.

2. ضيوف المدرسة

من كبار ضيوف المدرسة في هذه الفترة المفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي (1905-1973)، وشيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله (1930-2013) رحمهما الله. وكلاهما ألقى محاضرة بقاعة السينما، الأول حول قضايا تتعلق بالفكر الإسلامي، في مطلع السنة الجامعية 1970؛ والثاني محاضرة حول العامل الديني في الثورة التحريرية، في مطلع السنة الجامعية 1971.



الصورة 2. أبو القاسم سعد الله



الصورة 1. مالك بن نبي في المدرسة العليا للأساتذة، القبة

نشير إلى أن الواقف بجوار مالك بن نبي في الصورة 1 هو الطالب الأستاذ سليم كلالشه (1945-1989) رحمه الله.

3. المشاهير الذين تخرجوا من المدرسة في هذه الفترة

تخرج من المدرسة أعلام كثيرون في العديد من المجالات لا نحسب أننا قادرون على ذكرهم جميعا، فليس ذلك بالأمر الهين فهم، بلا شك، كثير، وفي كل المجالات. من أجل ذلك نعتذر لكل من قصّرنا في حقه وسنكتفي في هذا المقال بذكر البعض منهم سائلين الله الرحمة لكل من توفي منهم:

1.3. في المجالات الفكرية

- الأستاذ علي الكنز عالم الاجتماع (1946-2020) المولود بسكيكدة، والذي التحق بالمدرسة في أكتوبر 1965، وكان طالبا في السنة الثانية جامعية في قسم الفلسفة. ومن أعماله: "اقتصاد الجزائر" (1980)، "كبار المفكرين" (1985)، "الجزائر والحدثة" (1989)، "الفرصة والتاريخ" (1990).
- الأستاذ دحو جربال، المولود في 6 يناير 1946 بوهران، والذي التحق بالمدرسة في أكتوبر 1965 في السنة الأولى آداب فرنسية. كان أستاذا في تاريخ الحضارات الشرقية في قسم التاريخ بجامعة الجزائر 2. وهو، منذ 1993، مدير مجلة «نقد» التي تعنى بالدراسات النقدية الاجتماعية. من مؤلفاته "المنظمة الخاصة لفيدرالية فرنسا لجهة التحرير الوطني".
- الأستاذ محمد القورصو، الذي التحق بالمدرسة في نوفمبر 1967 في السنة الثانية بقسم التاريخ. هو مؤرخ جزائري مشهور وعضو في جمعية 8 مايو 1945. عيّنه الرئيس عبد المجيد تبون عضوا في اللجنة المشتركة الجزائرية الفرنسية، التي مهمتها معالجة ملف الذاكرة والقضايا التاريخية العالقة بين الجزائر وفرنسا.
- الأستاذ جغلول عبد القادر، الذي التحق بالمدرسة في أكتوبر 1965 بالسنة الثانية. هو مؤرخ وعالم اجتماع وأستاذ بجامعة وهران (1984)، ومدير مركز البحوث والمعلومات الوثائقية في العلوم الاجتماعية والإنسان (CRIDSSH). من أهم أعماله "عناصر من التاريخ الثقافي الجزائري". توفي جغلول عبد القادر في أبريل 2010.

2.3. في المجال العلمي

- الأستاذ محمد بنات، الفيزيائي الجزائري الشهير، من مواليد 15 يوليو 1949 بتنس. التحق محمد بنات بالمدرسة في مطلع السنة الجامعية 1967-1968، وذاع صيته كعالم في الفيزياء في اليابان في الثمانينيات بعد دراسته الفيزياء في جامعة الجزائر ثم في جامعة تولوز بول سباتي بفرنسا. كان عضوا بالجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين، والجمعية اليابانية للمهندسين الميكانيكيين، وتولى الإشراف في جامعة طوكيو على العديد من مشاريع البحث والتطوير.

3.3. في المجالات السياسية

- السيد طاهر قاسي (1944-2007) المولود في قرية مغيرة بتيزي وزو، والذي التحق بالمدرسة في أكتوبر 1964. تبوأ طاهر قاسي عدة مناصب في وزارة التربية قبل أن يصبح مستشارا برئاسة الجمهورية ثم كاتب دولة للتكوين المهني بين عامي 1996 و1997. ومن مؤلفاته كتاب "تأملات في النظام التربوي" (2003).
- السيد جيلالي اليابس (1948-1993) المولود بسيدي بلعباس، والذي تحمل اسمه جامعة سيدي بلعباس. التحق بالمدرسة في نوفمبر 1967 بقسم الآداب الفرنسية، وواصل دراسته في قسم الفلسفة. عُيّن وزيرا للجامعات عام 1991 ثم وزيرا للجامعات والبحث العلمي عام 1992، وفي أكتوبر 1992، مديرا لمعهد الدراسات الاستراتيجية الشاملة. ومن مؤلفاته كتاب "بلدان العالم الثالث والنظام العالمي الجديد".
- السيد محفوظ نحناح (1942-2003) وُلد بالبليدة والتحق بالمدرسة في بداية الموسم الجامعي 1968-1969 بقسم الأدب العربي. هو من أسس مع الشيخ محمد بوسليمان جمعية الإرشاد والإصلاح، وكان أول من ترأسها ثم أسس بعدها حركة مجتمع السلم الجزائرية فحزب "حركة المجتمع الإسلامي" الذي انتخب أول رئيس له في 30 مايو 1991.

4.3. في إدارة شركات ومجمعات كبرى

- السيد صالح شروانة، وهو كيميائي وتبوّأ عدة مناصب في شركة سوناطراك منها مدير مصفاة، رئيس تنفيذي للتكرير (15 عامًا)، ورئيس مدير عام شركة نפטال، الشركة الوطنية لتسويق وتوزيع المنتجات النفطية، خلال الفترة 2005-2007.
- السيد سعيد أكريتش، وهو فيزيائي التحق بالمدرسة في أكتوبر 1967 بقسم الرياضيات، وانضمّ في 1975 لوزارة الطاقة والمناجم ليصبح رئيسا مديرا عاما لشركة نפטال 2007-2015.
- السيد مصطفى سواق، وُلد بمدينة دّس والتحق بالمدرسة في مطلع السنة الجامعية 1968-1969 بقسم الأدب العربي، ودرّس مادة «نظرية الأدب» في جامعة الجزائر. شغل عدداً من المناصب المختلفة في شبكة الجزيرة، منها مديرا لمركز الجزيرة للدراسات، وأصبح عام 2011 المدير العام بالوكالة لشبكة الجزيرة الإعلامية.

5.3. في مجالات الفنون

- نذكر السّادة الذين كانوا طلبة بالمدرسة قبل السبعينيات:
- عبد الكريم بهلول (المقيم بفرنسا)، وبلقاسم حجاج (الذي تكوّن في بلجيكا وعاد إلى الجزائر)، وهما مخرجان سينمائيان مشهوران؛
 - منصف قيتا في الفنون التشكيلية، والذي التحق بالمدرسة في نوفمبر 1964 بقسم العلوم الطبيعية؛
 - بن بابا علي سعدان الذي كان أستاذا في اللغة العربية وآدابها بجامعة السوربون الجديدة ومهتما بالموسيقى الأندلسية والموشحات.

4. بعض المحطات الهامة في تاريخ المدرسة بعد 1971

1.4. مرحلة التردد والبحث عن إثبات الذات من 1971 إلى 1979

- أهمّ حدث شهده النظام التربوي في بداية السبعينيات، بعد استحداث وزارة للتعليم العالي والبحث العلمي في 21 جويلية 1970، هو إصلاح التعليم العالي الذي أنشأ، بمقتضى المرسوم 71-228 الصادر في 25 أوت 1971، شهادة ليسانس التعليم التي تؤهل أساسا للتعليم العالي، وألغى مرسوم الامتياز الذي كان يتمتع به الطلبة الأساتذة منذ نشأة المدرسة أي شبه الراتب المصروف للطلبة الأساتذة، وعوّضه بمنحة. وكان من انعكاسات ذلك عزوف الطلبة عن الإقبال عن التسجيل بالمدرسة العليا (وهي مؤسسة جامعية تابعة لوزارة التعليم العالي)، وقد انجرت عن هذا العزوف آثار سلبية على تأطير التعليم الثانوي. وفي مسعى لسدّ الحاجة اتخذت الإجراءات التالية: [1]
- إصدار مرسوم رقم 72-237 بتاريخ 13 نوفمبر 1972 يقضي بزيادة 100 دينار لشبه راتب طلبة المدرسة العليا للأساتذة بالقبّة؛
 - إصدار قرار وزاري في 18 جويلية 1975 يقضي بالسماح لمن لهم مستوى السنة الثالثة من التعليم الثانوي في التخصصات العلمية للالتحاق، بعد مسابقة، بالمدرسة العليا وبعض الجامعات لتحضير الليسانس في العلوم الدقيقة (فيزياء كيمياء رياضيات)؛
 - إعادة نفس الإجراء في السنة الموالية بمقتضى القرار الوزاري المؤرخ في 21 ماي 1976؛
 - إصدار قرار وزاري في 03 جوان 1976 يعمّم الإجراء لتحضير الليسانس في العلوم الطبيعية؛
- وهكذا التحق بالمدرسة العليا وبعض الجامعات 1275 طالبا أستاذا من غير المتحصلين على شهادة البكالوريا. ولقد رأينا أن مثل هذه الإجراءات لا تشجع التحاق حاملي شهادة البكالوريا بالمدرسة واقترحنا إلغاءه، فلم يكرّر في مطلع السنة الجامعية 1977-1978.

في أكتوبر 1977، تم توجيه كل طلبة جامعة باب الزوار المعزبين (وكانت آنذاك تدعى جامعة العلوم والتكنولوجيا للجزائر) للمدرسة العليا للأساتذة. وقد سبب هذا حرجا كبيرا لمديرية الدراسات بالمدرسة لجهلها بعددهم وبمواعيد التحاقهم بالمدرسة، ولعدم توفر المدرسة على مرافق كافية لاستيعابهم. وقد اضطرت إدارة المدرسة على هدم الجدران الفاصلة بين بعض القاعات الجاهزة والاستعانة بعدد من الكراسي والطاولات من جامعة باب الزوار.

في السنة الجامعية 1978-1979، عُرض على إدارة المدرسة إلحاق جامعة الخروبة للتوسع، لكنها رفضت المقترح بعد معاينة القاعات وتأكيدها من عدم توفرها على مخابر تفي بمتطلبات التعليم العلمي. كما تم خلال سنة 1978، توجيه الطلبة الأساتذة الذين كانوا ينتمون لمدرسة لتكوين المعلمين، كانت قد أنشئت في إطار التعاون الجزائري العراقي في أواخر السبعينيات ببوزريعة، إلى المدرسة العليا للأساتذة بالقبة.

شهدت السنة الجامعية 1979-1980، تحويل الداخلية القديمة (الموروثة عن العهد الاستعماري) إلى مخابر في الفيزياء والكيمياء والعلوم البيولوجية وقاعات دراسية. وكان ذلك إيذانا بانطلاقة جديدة للمدرسة أصبحت فيها هي المؤسسة الجامعية الوحيدة في وسط البلاد المكلفة بتكوين أساتذة التعليم الثانوي في التخصصات العلمية. وقد كان دور المدرسة قبل هذه السنة يكاد يكون منحصرًا في مهام إدارية: صرف شبه الراتب للطلبة الأساتذة بما فهم الأدبيين، وبرمجة الدروس لطلبتها العلميين الذين كانوا تحت الإشراف البيداغوجي للجامعة المركزية زمنًا، ثم تحت الإشراف البيداغوجي لجامعة باب الزوار، من حيث كون هاتين الجامعتين هما اللتان كانتا تمنحان شهادة التخرج للطلبة الأساتذة.

2.4. مرحلة الإقلاع من 1980 إلى 1990

- جوان 1983، تخرّج أول دفعة من المدرسة العليا، وهي الدفعة التي دخلت المدرسة 3 سنوات من قبل أي في مطلع السنة الجامعية 1980-1981، وكانت شهادتها صادرة من المدرسة، وليس من الجامعة.
- 27 جوان 1983، انعقاد يومين دراسيين بناء على دعوة من وزارة التعليم العالي، جمعا ممثلين عن القطاعات المعنية وأفضيا إلى توصيات تصبّ كلها في منحى دعم المدرسة، نذكر منها ضرورة تنظيم سنة رابعة للتكوين البيداغوجي.
- 1983-1984، فتح قسم العلوم الموسيقية.
- 30 نوفمبر 1989، مناقشة أول ماجستير في العلوم البيولوجية، وهو أول ماجستير نوقش للمدرسة بعد حصول المدرسة على رخصة فتح دراسة ما بعد التدرج 3 سنوات من قبل.
- 1987-1988، اعتماد مديرية الدراسات بالمدرسة المعالجة الإعلامية لقبول الطلبة، لتكون بذلك المدرسة أول مؤسسة جامعية أدخلت الإعلام الآلي.
- 1989-1990، توقف شبه الراتب سنة بصورة نهائية.

الخاتمة

حاولنا جهدنا في هذه العجالة أن نقف عند بعض المحطات التي بدت لنا مهمة في حقبة من تاريخ المدرسة العليا للأساتذة بالقبة القديمة. ولا ندعي الشمولية ولا تمام الدقة العلمية، وأتى يكون لنا ذلك وقد أنجز هذا العمل في وقت قصير معتمدين فيه على ما حفظته الذاكرة، وعلى شهادات بعض من قدامى موظفي المدرسة الذين نشكرهم على حسن تعاونهم رغم كبر سنهم، ومن أجل ذلك نعتذر عن كل قصور أو تقصير.

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أننا لمسنا في مسعانا للحصول على بعض المعلومات كم هي ملحة حاجتنا إلى العناية بأرشيف مدرستنا ورقمته ونحسب أن ذلك بات ممكنا، بل ولعلّه يكون مبرمجا، وقد أدركت مدرستنا حالة من الاستقرار.

مرجع

[1] سعداني، محمد الطيب، التكوين التربوي والمهني لأساتذة العلوم في الجزائر، مراحل تطوره منذ الاستقلال وآفاق تجديده في مطلع الألفية الثالثة، رسالة المجلس الأعلى للتربية، عدد خاص أبريل 1999.

